رواية الجبل لفتحى غانم

هذه الرواية هى الرواية الأولى للكاتب المصرى فتحى غانم . وقد ألفها بعد ثورة ١٩٥٢ من منطلق إدانة الإصلاح فى الفترة السابقة على هذه الثورة فى مصر الملكية . وموضوعها يتلخص فى أن الحكومة المصريّة قبل ١٩٥٢ أنشأت قرية نموذجيّة لتنقل إليها سكان قرية «الجرنة» أو «الجبل» الواقعة فى صعيد مصر فى محافظة الأقصر حتى يكفوا عن استخراج الآثار المصريّة من تماثيل وغيرها ، وبيعها للأجانب عن طريق التهريب . وقد فشل المشروع لأن سكان القرية رفضوا الانتقال إليها ، وفشلت كل المحاولات فى تغيير موقفهم هذا . والقرية النموذجيّة فى حد ذاتها تعد محاولة لتغيير نمط الحياة لسكان الريف ، من قبل مهندس مصرى نابغة هو حسن فتحى حاول ابتكار شكل معمارى يلائم البيئة المصريّة فى صعيد مصر . وهذا العمل الجاد يبدو التحامل واضحا عليه من قبل الكاتب . حيث يرى أن الرغبة فى إصلاح أحوال قرية «الجرنة» لم يكن إصلاحا خالصا لوجه الله ووجه الإصلاح ، وبخاصة وأن المسئولين – فى رأى الكاتب – لم يهيئوا لأهل القرية عملا بديلا لتهريب الآثار ، يرتزقون منه . ويبدو واضحا تأثر فتحى غانم «بيوميات نائب فى الأرياف» ، و «عودة الروح» لتوفيق الحكيم، ولعل عودة الروح تكون أبعد أثرا . ففى تلك الرواية الأخيرة يتحدث الحكيم عن الحكمة المترسبة فى قلوب المصريين على مر الزمن ، كما يشيد بمعيشة الفلاح المصرى مع حيواناته فى مكان واحد . ويجعل ذلك دليل حضارة ومدنية . ويوافقه فتحى غانم على ذلك ، وإن كانت موافقته ضمنيّة ، وليست فى صراحة الحكيم . يقول فتحى غانم: « . . وفوجئت بصبى صغير يدخل علينا ، وهو يقود حمارًا ، دخل الحمار الكهف فاستقبلوه باهتمام كبير ، وأسرعت الصبيّة تقدم له العلف ، بعد أن ربطته فى أحد الأركان . . إنّه واحد من أسرتهم ، يعيش معهم ، ويأكل وينام تحت نفس السقف الذى يأكلون وينامون تحته .

ونظر مضيفى إلى الحمار ، ثم نظر إلىّ ، وبدأ يشرح لى كيف أن مهندس القرية النموذجيّة يريد منهم أن يتركوا دوابهم بعيدا عن بيوتهم . وقال فى تأثر :

– الواحد منا ينام بعين مغمّضة وعين مفتحة على حمارته ، والا بهيمته. . كيف أنام والحمار بعيد عنى. . مين يحرسه. .المهندس. . والا ما كانت تمر عليه ليلة إلاّ والاجيه مسروج»[١] .

ويأتى فتحى غانم فلا يذكر ما ذكره الحكيم بالتفصيل نفسه ، وعلى نفس المستوى ، ولكنه يشير إلى هذا فيقول مثلا عن حكمة أهل الريف المتوارث ، وإن تغيّرت العبارة . يقول فتحى غانم : «كم يدخر هؤلاء الناس فى نفوسهم من إنسانية راسبة فى الأعماق»[٢] .

ويفسر الصدام بين أهل الجبل وبين ممثلى الحضارة الحديثة بأنّه صدام بين إنسانية أهل الجبل الصادقة الساذجة الحائرة ، وبين مدنيّة ناجحة سطحيّة قلقة : «إنه عندما اصطدم أهل الجبل بالقرية النموذجيّة ورفضوا النزوح إليها . . إنّه اصطدام خطير بين إنسانية صادقة ساذجة حائرة وبين مدنية ناجحة سطحيّة قلقة»[٣] .

إن سكان المدن ، وممثلوا الحضارة الحديثة فى أوربا يفرون منها ، وها هى ذى نماذج منهم يعرض لها الكاتب تبيّن أن الحياة البدائية التى يحياها سكان قرية «الجبل» هى الحياة الحقّة ، بعيدا عن مفاسد الحضارة فى باريس أو غيرها . تقول الأم الفرنسيّة للراوية الذى يعبر عن وجهة نظر الكاتب: « – ولكنهم يفسدون الطبيعة . ربما تصلح هذه المبانى للمدن كالقاهرة والإسكندرية . . أفضل أن يعيش الأهالى فى كهوفهم فى الجبل .. حتى لا تفسدهم المدنيّة كما أفسدتنا . . كان الأفضل إنشاء هذه القرية النموذجيّة فى القاهرة»[٤] .

(والخواجاية) التى تعمل فى التهريب – وتعيش فى قرية «الجبل» لها هى الأخرى موقف من المدنية . يقول الراوية عنها : « .. دى هاربة من فرنسا . . مش عايزة تعيش وسط المدنية ، وبتقول إنها بتحب الناس البدائيين ، وعايزاهم يفضلوا بدائيين . . علشان مايتلوثوش بالفساد .. بتعلم نسوان الجبل التطريز .. لأنهم شاطرين ، وهما اللى عملولها العباية بتاعتها وقدموها هديّة لها»[٥] .

---

(١) فتحى غانم الجبل : مكتبة روز اليوسف . الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٨٩ ص ٩١ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٢٧ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٩ ، وانظر تفاصيل رأيها فى هذا الخصوص ص ٣٠ – ٣١ .
(٥) المصدر نفسه ص ٤٣ .

وقبل أن نمضى فى بيان هذه الحقائق ، نتحدث مرّة أخرى ، عن موضوع الرواية الذى يمثل صراعا بين التقاليد المألوفة لدى أهل الجبل ، وبين إدخال الحياة الحديثة إليهم . فقرية «الجرنة» بصعيد مصر ، تعيش على التنقيب عن الآثار ، دون علم الحكومة ، وبيع ما يعثرون عليه منها للمهربين الأجانب ، ورغم أن الحفر لا يتم فى سلام لاستخراج تلك الآثار ، بل تسقط فى أثنائه الضحايا ، فإن الناس يستمرون فيه ، لأنّه مصدر رزقهم الوحيد ، ومن يضق منهم بهذه الحياة يهجر القرية إلى الأبد ، تاركا خلفه امرأته تنتظر عودته دون جدوى . وتلك هى القرية التى قرّرت الحكومة أن تكون لسكانها قرية حديثة نموذجيّة يعيشون فيها . ولكن السكان يرفضون أن يغادروا قريتهم للعيش فى تلك القرية النموذجيّة ، لأسباب منها طراز المبانى الذى تقام فوق كل مبنى منه قبة ، نفرّت أهل القرية من سكناها لأن القباب فى رأيهم تنشأ فوق القبور لا فوق البيوت . ومنها كذلك أن القرية تفصل بين الفلاحين وحيواناتهم ، حيث خصصت حظيرة عامة لحيوانات سكان القرية جميعا ، والفلاحون – فى رأى الكاتب – لا يستطيعون فراق حيواناتهم خوفا عليها من السرقة ، ولأن الفلاحين – كما يقول الكاتب – لم يكن لهم مصدر رزق آخر غير تهريب الآثار ولو حيل بينهم وبين الجبل فكيف يعيشون . ولعل هذا هو السبب الأساسى لتمسكهم بالبقاء فى قريتهم . ولو أن الحكومة فكرت فى إيجاد مشروع يرتزق منه الناس ، لانتقلوا إلى القرية النموذجيّة ، ولما حدث منهم هذا الموقف ، ولكن الحكومة فكرت فى المشروع لأسباب لا دخل للإصلاح فيها .

ومع وجاهة كثير من الأفكار التى يرى الكاتب أنها علّة إخفاق المشروع ، فإن للقارىء تحفظات على كثير من الشخصيات التى تنتمى إلى المدينة وإلى الجهاز الحكومى . فالرجال منهم فيهم رقة وأنوثة ، إن صحّ هذا التعبير . فالمهندس الذى أنشأ القرية النموذجية يختلف عن العمدة وهو أمر طبيعى : «كانت المعركة بين المهندس وعمدة أهل الجبل مريرة طويلة ، وقف الخصمان فيها يناضلان فى غير يأس . أحدهما تعلم الفن فى فرنسا ، ويتكلم الفرنسيّة فى طلاقة ، والثانى رجل عجوز ماكر ، يحارب بالفطرة والحكمة التى ورثها عن أجداده الذين لم يغادروا الجبل أبدا .»[1].

والنساء فى القرية يختلفن عن نساء المدينة ، فنساء المدينة منحلات أخلاقيا أو على الأقل من يقدمهن الكاتب منهن ، فهن لا يفكرن إلا فى الجنس والمتعة الرخيصة . فمثلا

(١) المصدر نفسه ص ٥١ .

الأميرة أخت الملك فاروق تأتى لافتتاح القرية النموذجية يتبعها أربعة من الأمريكان ، ولكنهم لا يرضين رغبتها فى المتعة ، ولذا فإنها ما إن ترى العمدة وما يتسم به من رجولة وفحولة ، حتى ينال إعجابها وتثور رغبتها فيه . «ورأت الأميرة صورة العمدة ، فى جسمه الطويل الأسطورى ، وهو يتقدم منها ، محاطا بالمهندس وبعض العساكر ، بينما صدرت الأوامر باستئناف الرقص فى الحال . ووقف الأمريكيون ينظرون فى ترقب يشوبه الحذر والقلق ، واتجه العمدة إلى الأميرة ، ومد يده إليها ، وقبض بها بقوة سرت معها رعشة أحست بها الأميرة فى ذراعيها ، وفى ارتجاج ثدييها ، وفى تقلص بطنها .. وسرت الرعشة كالكهرباء فى ساقيها .

وابتلعت الأميرة كأسا آخر فى جوفها .. وقالت ضاحكة بالفرنسية :

دعوه يجلس إلى جانبى ..

كانت الرعشة التى سرت فى جسد الأميرة ، سببا لإعجابها بالعمدة . . بالرجل، كانت تنظر إليه ولا تراه. . كانت تتخيّله. . قوّة من الرجولة لم تعرف لها مثيلا من قبل .. وتحولت الأميرة إلى أنثى ... أطلقت ضحكات ناعمة لينة ، وبرزت ثنايا جسدها .. وتراخت على مقعدها .. واكتست عيناها بغشاوة من الرغبة الناعسة ... ومدّت أطراف أناملها تداعب بها ذَقْن العمدة ، وهى تقول له بالفرنسيّة :

– آه. . يا فارسى الجميل[1] .

ولا شك أن هذا تصور ساذج لمدى العلاقة التى يمكن أن تنشأ بين أميره ورجل من عامّة الشعب ، بينهما من الاختلافات الثقافية والطبقيّة ما لا يمكن أن تغفل عنه امرأة فى مثل مركزها الاجتماعى . قد تحدث تلك العلاقة بمضى الوقت والمخالطة ، ولكنها لا يمكن أن تحدث هكذا فجأة ، ويمثل تلك الصورة الفجّة التى لا تخلو من حيوانية .

ولا تختلف السيدة مهربة الآثار اختلافا جوهريا عن الأميرة[2] ولكن العلاقة بينها وبين حسين على تأتى تدريجيا ومع مرور الوقت والألفة ، ولا تتم فجأة ولا بطريق الصدفة ، فهو يعرفها منذ صباه حيث كان أبوه يرسله إليها ، من قبل مرات عديدة ،

(١) المصدر نفسه ص ١٠٠ – ١٠١ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٤٥ – ١٤٧ .

كما كانت تعيش فى قرية الجرنة التى يعيش فيها . صحيح أن الكاتب لا يصور الأميرة جسديا ، ولكنه يصف أخلاقها وانحلالها .

ولو نظرنا إلى نساء أهل الجبل لوجدناهن يتسمن بسمات مغايرة لسمات النساء المدنيات سواء فى الخلق أو فى الصورة الجسديّة التى قد يغفل الكاتب عنها نهائيا ، كما يفعل وهو يتحدث عن مريم أخت حسين على وزوجة عمدة «الجرنة»[١] أو وهو يتحدث عن صبيّة من أهل القرية ، فيصفها وصفا جسديا عامّا مجملا ، متحدثا عن خلقها وعنقها ، وكتمانها لعواطفها وجرأتها : «والصبيّة قد صففت شعرها فى ضفائر كثيرة منسدلة على جبينها . . نفس تسريحة الشعر الفرعونية التى أراها فى صور الملكات .

كان جمال الصبيّة مثيرًا ، لا أستطيع أن أصف هذه الصبيّة بأنها جميلة كالقمر ، أو رقيقة كنسمة الربيع. أصدق ما توصف به. أنها حنونة كالأرض الخضراء ، فائرة كشمس الصيف، نبيلة كملكة فرعونية .

ونظرت إلىّ الصبيّة بعينين لا تعرفان الخجل ، ولكنهما تعرفان الحياء .. كانت تنظر فى دهشة ، ولكنها لا تنظر خلسة ، عيناها صريحتان ، يخرج منهما بريق أسود حزين»[٢] .

ويلاحظ على هذا الوصف أنه غير نمطى وغير تقليدى ، ويفيض إعجابا بالصبيّة ، وأن الصفات التى وصفها بها مناقضة لصفات المرأة المصرية التى تسكن المدينة ، ومناقضة كذلك لصورة النساء الأجنبيات فى الرواية ، بل إنّه لا يصف زوجة القروى وصفا جسديا ، وإنما يتحدث عن رجاحة عقلها ، وصدق مشاعرها ،وواقعيتها تجاه مشروع القرية النموذجية[٣] .

ولو قارنا تصويره لأى امرأة من القرية وتصويره «للخواجاية» مهربة الآثار ، لوجدنا صورة الأخيرة هى صورة الساقطة التى يركز المؤلف على أماكن من جسدها لا يمكن أن يذكرها وهو يتحدث عن امرأة ريفيّة من الجبل[٤] . بل إننا لا نعرف للخواجاية تبريرًا

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٧ – ١٣٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ٩٠ ، وانظر تكملة حديثه عن الفتاة المصدر نفسه ص ٩٠ ، ٩١ .
(٣) المصدر نفسه ص ٩١ – ٩٣ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٤٥ – ١٤٦ .

حقيقيا لبقائها فى الجبل فإذا كان السبب هو التهريب ، أو هو غرضها الأساسى من البقاء. يكون بقاؤها لتكوين ثروة تعود بها إلى بلادها ، وإذا كان هو الفرار من الحضارة الغربيّة هو السبب الحقيقى ، يكون المؤلف مسئولا عن عجزنا عن الاقتناع بذلك . وبخاصّة وأنها حريصة على أن تكون واحدة من سكان أهل الجبل ، بل وتخشى أن تطرد منه . ويوضح هذا حوارها التالى مع حسين على :

– أنا سبت جوزى وأهلى وبلدى .. وجلت لنفسى أنتم أهلى يا حسين .

فقاطعها صوت مفاجىء من حسين ، ملىء بالغضب والإنكار ، صوت كأنّه انفجار :

– لو كنت من نسواننا كنت جتلتك .. إنت خواجاية .

فصرخت فى ألم :

– اجتلنى يا حسين .. وماتجلش علىّ خواجاية .[1].

وتبقى أشياء لابد من ذكرها عن رسمه للشخصيات، فوكيل النيابة يطبق عمله آليا ، دون إدراك لمشاعر من يطبق عليهم القانون ودون مراعاة لإنسانيتهم ، كما أن له مظهرين متناقضين ، مظهرًا فى منزله الذى لا يتسم بالنظافة أو الأناقة ، أو الترتيب ، ويكاد يخلو منزله من الأثاث ، ويلبس فيه ملابسه الداخلية ، وقبقابا فى قدميه ، ومظهرًا آخر خارج منزله يظهر فيه متأنقا ، وفى صورة تخالف تمام المخالفة صورته داخله ، ومن مظاهر الغرابة فى سلوكه ، أنه يعشق الأميرة عشقا رومانسيا لا تبادله إياه بل لا تعلم به ، ولكن الكاتب لا يكتفى بذلك بل يشير إلى بائعة اللبن الحسناء التى تذهب إلى مسكنه . وكأنه يشير من طرف خفى إلى سوء سلوكه . يقول الكاتب عن التناقض فى مسلك وكيل النيابة : «.. فتحت عينى على منظر وكيل النيابة .. واقفا بالفانلة واللباس ممسكا بكوب شاى يقدمه إلىّ وأنا راقد فى السرير .

كان منظره (مناقضا) تماما .. وهو جالس فى بهو فندق ونتر بالاس . أو عندما يجلس على منصّة الاتهام فى المحكمة ، وقد علق وشاحه الأحمر فوق صدره .. ووضع الطربوش فوق رأسه ينظر إلى المتهمين فى تعال وغطرسة وكبرياء .. كان مجرّدًا من مظاهره .. ومسكنة أيضا مجردا من كل شىء ، حجرة ليس فيها غير سرير «سفرى» كسرير المستشفى .. إلخ»[2].

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧ وانظر لمزيد من التفاصيل عن مسكنه ومظهره ص ٢٧ ، ٢٨ .

بل إنّ من ينتقل من القرية إلى المدينة ويحيا بين أهلها كالشيخ طلباوى لابد أن يتحول إلى شخص سيء يتسم بصفات أخرى تناقض الصفات الطيبة التى يتسم بها أهل قرية «الجبل» . ويركز الكاتب على مظهره البراق أو الجذاب ، وإن كان لا ينسى أن يسمه بالمكر : «كان الشيخ على لا يتجاوز الثلاثين من عمره ، نحيفا رشيقا ، أنيقا فى ملابسه ، عمامته نظيفة ، تميل قليلا على حاجب عينه اليمنى .. له عينان جذابتان ماكرتان ، وأنف مستقيم ، وشفتان غليظتان ولكنهما لا تؤثران فى وسامة وجهه .. وكان يتكلم باللغة الفصحى .. وشعرت فى الحال أنه يتباهى بنفسه على أهل الجبل . ولمحت العمدة ينظر إليه فى اشمئزاز صريح» .

وهو يعمل مدرسا بملجأ للأيتام بأسيوط ، وفى الوقت نفسه لا يقف مع أهل قريته بل يقف ضدهم ، ويشعر بالخجل منهم ، ويريد أن تصحبه أخته إلى أسيوط ، يقول حسين على : «غرضه ياخذ مرتى معاه سيوط .. خزيان بعد ما تعلم من عيشتنا هنا .. ماكانش غرضه إنى أتجوزها» . والمؤلف يقارن بين موقف الشيخ ، وموقف العمدة ، ويصرح بالاشمئزاز من الشيخ لمسلكه الذى يخالف مسلك العمدة .

وهناك شخصيات قرية «الجبل» التى تتسم بمظهر قاس حشن ، وتتمتع بقوة غير عادية ، ولكنها لا تتجرد من العواطف النبيلة التى تناقض ذلك المظهر تناقضا تاما . فحسين على يصور كأنه فارس من فرسان العصور الوسطى ، أو القديمة ، ويتسم بسمات مثالية فى الجسم والخلق معا : أمّا فى الجسم فيصفه بقوله : «كان طويلا فارعا ، بياض عينيه يلمع فى الظلام ، يلبس جلبابا أبيض ، وخفا فى قدميه .. ومديده إلى وصافحنى بقوة» . ويتكلم عن رجولته بقوله : «كبرياؤه كانت تستثيرنى ، ورجولته تستفزنى رغما عنى وتطالبنى بامتحانها .. كنت أريد امتحان رجولته ، لأنى أريد أن ألمسها ، وأراها واضحة حيّة أمامى .. إنّ هذا النوع من الرجولة نفتقده فى حياتنا فى القاهرة .. هذه الصراحة المباشرة ، لا نعرفها ولا نقابلها . هذه القدرة الخارقة على المواجهة وتبادل الثقة بسرعة ، وبعد مجردّ قسم أو عهد .. شيء لا نتعامل به فى حياتنا ومن الصعب علىّ تصديق وجوده»[1] . ولكن تلك الصورة لا تجرد حسين على من إنسانيته وعواطفه وغرائزه التى يعرف كيف ينتصر عليها فى مواجهة الخواجاية عندما أحس أنها تخونه ، أو أنها تعرف

(١) المصدر نفسه ص ١٢٠ .

شخصا آخر غيره ، فقطع علاقته بها إلى الأبد بعد أن أوشك أن يقتلها[١] . ومن هذا الجانب الإنسانى ما يتسم به من إحجام عن القتل ، بسبب كراهيته للجثث بعد أن رأى جثتى أخته «مريم» وأبيه فى أحد الكهوف[٢] . ويصرح الكاتب بإنسانيته التى يبديها خلف ذلك المظهر العنيف المتسم بالقوة والعدوان فيقول : «وشعرت بصدقه وبساطته .. رغم طوله وعرضه وقوّته البدنيّة الظاهرة .. ولكنى لم اطمئن إليه كل الاطمئنان»[٣] .

ويتسم العمدة بسمات تجسدها القوة والمثالية الأخلاقية : «كل الصلابة والحزم اللذين فى الدنيا ، اجتمعا فى وجه العمدة وارتسما فى ملامحه»[٤] . ويقول عنه : «ونهض العمدة فجأة فإذا (هو) طويل جدا .. عملاق .. مارد .. وجذبنى معه فأصبحت واقفا إلى جانبه ، ومدّ يده اليمنى ، وقبض بها على كتفى ، كأنه يسلم علىّ»[٥] . ويقول عنه: «ورفع الرجل يده عنى .. وقد بدا أمامى كمارد مخيف ، عفريت من عفاريت المقابر»[٦] ، وتقابل تلك الصور الجسدية الخارقة للعمدة صورة نفسية وأخلاقيّة ، فهو ينفذ «عدل الله – كما يقول – فى توزيع أنصبة أهل الجرنة من الآثار التى يعثرون عليها كما يتسم بالوفاء لزوجته مريم التى ماتت فى قبو كانوا يبحثون فيه عن الآثار ، ويحافظ على أهل قريته الذين يرأسهم كما لو كانوا أبناء له ، ومن ثمّ فهو مهيب محترم بينهم .

ومع ذلك كله فإن الدعائية تكون واضحة من إنهاء الكاتب لروايته بالحديث عن زيارة من رئيس مصر السابق جمال عبد الناصر لقرية الجرنة ويرافقه فى الزيارة الرئيس الأندونيسى أحمد سوكارنو فلا شك أن هذه الخاتمة تشهد بالمقارنة بين عهد وعهد آخر من عهود حكم مصر ، والدعاية لأحدهما وهو عهد الثورة ، ولأن الرواية ألفت فى عهد الثورة ، لم يستطع الكاتب التخلص من أثر تلك الثورة عليه فأصبح وكأنّه يدين الماضى تمجيدا للحاضر ودعاية له .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦١ – ١٦٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٦٥ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٢٢ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٥٣ .
(٥) المصدر نفسه ص ٧٧ .
(٦) المصدر نفسه ص ٩٠ .